شوقي في الشعر الإسلامي

بقلم
الدكتور إبراهيم أبو خشبة
الأستاذ المتفرغ بالكلية

الذى يتحدث عن الشعر الإسلامى عند المعاصرين من أمثال شوقى أو غيره من هؤلاء الذين كانوا معه فى هذه الفترة التاريخية من القرن التاسع عشر الميلادى ، لابد أن يدرك أن هذا اللون من الشعر لم يدر بخواطرهم ، أو يجر على ألسنتهم ، لأنهم كانوا يتحرقون أسى وأسفاً ، على ما أصاب الإسلام من وهن ، أو نزل بأهله من محن ، وأن عاطفتهم الدينية كانت مشبوبة إلى هذا الحد الذى جعلهم يفيضون بهذا اللون من الشعور . يعلنون به عن الألم الذى يحز فى نفوسهم ، أو يتأجج فى ضلوعهم ، أغلب الظن أن الأمر ليس كذلك ، وإنما هو شىء آخر يتصل كل الاتصال - أو بعضه - بهذه الثورة التى كان بركانها مشتعلا عند الناس جميعا ، يطالبون بخروج الغاصب ، وطرد المستعمر ، وكانت هذه المطالبة ذات ألوان ، تتمثل فى الهتاف والمظاهرات ، والخطب السياسية ، والمقالات الملتهبة ، أو الدعوة إلى العلم والثقافة ، والتربية أو التهذيب ، الذى يشيع فى النفوس معنى الحرية والاستقلال ، وأن تكون إرادة الشعب بعيدة عن الأغلال والقيود - كما كان يقول الشيخ محمد عبده - بعد أن يئس من كل الأساليب المأخوذة بها

حينئذ - وقد كان الشعر الإسلامى واحداً من هذه الأساليب لمقاومة الاستعمار والتنديد بالغاصب ، والتشنيع على هؤلاء الذين خاسوا بالعهود التى يبذلونها للشعب بأن بقاءهم مرهون باستقرار البلاد ، وكان الشعر هكذا على اعتبار أن الإسلام يدعو إلى العزة والكرامة والحرية والاستقلال ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، ولم يكن دعوة للمسلمين أن يتحرروا من الأوهام ، أو يتحللوا من الخرافة ، أو يتخلصوا من البدعة ، أو يرأبوا الصدع ، أو يوحدوا الكلمة ، أو يقربوا المسافات ، أو يزيلوا الحواجز ، ولعل من هذا القبيل قول شوقى فى ثنايا الهمزية :

هل كان حول محمد من قومه ... إلا صبى واحد ونساء
فدعا قلبى فى القبائل عصبة ... مستضعفون قلائل أنضاء
ردوا بيأس العزم عنه من الأذى ... ما لا ترد الصخرة الصماء
والحق والإيمان إن صبا على ... برد ففيه كتيبة خرساء

وهى دعوة إلى العزيمة القوية ، والإيمان النقى ، والثبات على المبدأ ، والجهاد المتواصل بصرف النظر عن الكثرة ، لأن القلة التى يؤازرها الإيمان ويساندها الإخلاص ، ويعاضدها الصبر ، ربما كانت أجدى من الكثرة ، وأدعى إلى النصر ، وهو المعنى الذى تحتاج إليه الشعوب لبلوغ أهدافها ، والوصول إلى غايتها ، والدعوة إلى الله ، والإشادة بالإسلام ، أو توجيه الناس إليه ، يضيق بها الشعر ، ولهذا كان من التجاوز إلى حد بعيد أن نسمى هذا اللون الذى يكون لمناسبة مولد النبى ﷺ أو يوم هجرته . أو ليلة الإسراء والمعراج ، أوغزوة بدر ، أو ليلة القدر ، شعراً إسلاميا ، والشعراء الذين كانوا يدافعون عن النبى ﷺ ، ويقفون إلى جانبه ، ويؤيدون دعوته مثل : حسان بن ثابت ، أو عبد الله بن رواحة ، لم يكونوا شعراء إسلاميين إنما كانوا شعراء سياسيين ، وقصيدة كعب بن زهير بانت سعاد - وهى أول

قصيدة سميت بالبردة - كذلك لأن كعبا لم يكن قد أسلم ، وإنما أراد بها أن يحقن دمه بعد أن أهدره النبي ﷺ ، فلما أنشدها بين يديه عفا عنه ؛ لأن ذلك كان إعلانا لإسلامه ، والشعر الإسلامي المعاصر الذي صدر عن أولئك الذين عاصروا هذه الحقبة من القرن التاسع عشر وهي فترة السخط على الغاصب ، والمطالبة بجلائه عن البلاد ، أجدر بنا أن نسميه شعراً سياسياً لا إسلاميا ، وأصحابه حين خافوا سطوة المستعمر ، كانوا يلجأون إليه كرمز أو كناية ، حتى لا يتعرضوا لسيف الجلاد لا أكثر ولا أقل ، ولم يكن من المعقول وشوقي في معارضته للبوصيري في نهج البردة يقول :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

أو في الهمزية وهو يقول :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

أن نسمي هذا شعراً إسلامياً لأنه كان يستعرض عضلاته ، كما فعل وهو يعارض المتنبي والبحتري وابن زيدون - وكما يستعرض عضلاته في قوله للنبي صلى الله عليه وسلم :

مدحت المالكين فزدت قدراً ... وحين مدحتك اقتدت السحابا

ويجب أن يفهم أولئك الذين يتحدثون عن الشعر الإسلامي - عند شوقي أو غيره من الشعراء - أو الشعر الإسلامي هو ذلك الشعر الذي يدعو إلى مبدأ إسلامي أو يدافع عن قضية إسلامية ، لحين يقول شوقي :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

علمتهم كل شيء يجهلون به ... حتى القتال وما فيه من الذمم

لا نشك فى أنه كان إسلاميا بمعنى الكلمة ، وربما ساعدنا على أن نعتقد هذا الاعتقاد فى شوقى أن الخديوى عباس دعاه أن يخرج معه إلى البلاد المقدسة لأداء فريضة الحج ، فقابل هذه الدعوة بالفتور ، وعدم الرضا ، مكتفيا بهذه القصيدة التى قالها :

إلى عرفات الله يا بن محمـــد عليك سلام الله فى عرفات

وفيها يقول :

ويا رب هل تغنى عن العبد حجة وفى العمر ما فيه من الهفوات

وقد يكون من البعيد كل البعد على شاعر يقول :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

أو يقول :

دخل الكنيسه فارتقبت فلم يطل فأثبت دون طريقه فزحمته
فأزور غضباناً وأعرض نافراً حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعـابى إلى أترابه وزعمتهن لبـــانتى فأغرته
فأنى إلى وليس أول جؤذر وقعت عليه حبائلى فقنصته

ولا يغض هذا كله من قيمة شوقى - كشاعر له تقديره واحترامه ، فهو رجل كما يقول عنه مصطفى صادق الرافعى : « هذا هو الرجل الذى يخيل إلى أن مصر اختارته دون أهلها جميعا لتضع فيه روحها المتكلم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره ، وأعانته بما لم يتفق لسواه ، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة ، وخصائصها ، على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة ، لا على قدر رجل فى نفسه ، وبه وحده استطاعت أن تقول للتاريخ شعرى وأدبى ... وهذا هو الاسم الذى كان فى الأدب كالشمس من المشرق ، متى طلعت فى موضع فقد طلعت فى كل موضع ، ومتى ذكر فى بلد من بلاد العالم

العربى اتسع معنى اسمه فدل على مصر كلها - فكأنما قيل النيل أو الهرم و القاهرة ، مترادفات لافى وضع اللغة ولكن فى جلالها .. وهو فى نظرنا يشبه المتنبى الذى وصفه أحد معاصريه فقال : إنه مالىء الدنيا وشاغل قلوب الناس وإن كان ذلك مع الفارق بينهما لأن المتنبى ضاعف من شهرته ، وعمل على ذيوع صيته ، أن سيف الدولة احتفى به ، ومكن له ، وأغدق عليه ، وتناقل الركبان ما يصدر عنه من قول .. أما شوقى فإن أدبه وحده هو الذى نوه به ، وتلك قضية فرغ الناس منها وانتهوا إلى أنه جيل بأسره . وإذا كانت صيحة جمال الدين الأفغانى ، وتلميذه محمد عبده ، وغيرهما من المصلحين لم تؤثر التأثير المرجو . وكانت البلاد العربية والإسلامية مقفرة من هذا المخلوق الذى يحرك فيها النخوة ويثير فيها الإباء ، فإنه أراد أن يكون هو هذا الذى يحرك فيها النخوة العروبة والإسلام فى آن واحد ، وكان بذلك شاعر العروبة والإسلام ، والذى يتابع شعره كله يجد أنه ملىء بذلك ، فلم تقع محنة ببلد إسلامى أو عربى إلا كان منه من أجل ذلك دمعة راثية ، أو كلمة حانية . يقول :

رب جار تلفتت مصر تولي ... ه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتنى معـــزياً بمآقى ... وطنى أو مهنئاً بلســـانه
كان شعرى الغناء فى فرح الشر ... ق وكان العزاء فى أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ... ح وأن نلتقى على أشجانه
كلما أن بالعـــراق جريح ... لمس الشرق جنبه فى عمـــانه
وعلينا كما عليكم حـــديد ... تتنزى الليوث فى قضـــبانه
نحن بالفكر فى الديار سواء ... كلنـــا مشفق على أونانه

يقول لسوريا وقد ضربها الفرنسيون بالمدافع من القصيدة التى مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق
ويجمعنا إذا اختلف بلاد ... بيان غير مختلف ونطق ..

ويظهر أن هذه الناحية الإنسانية هى التى جعلت كثيراً من الناس يخلعون عليه لقب « شاعر الإسلام » كما صنع بعض المعاصرين . . وما زلت أقول : إن شوقى لم يكن هذا الشاعر ، وليس ذلك غمطاً لحقه ، أو جحوداً لفضله ، أو نزولا بقدره ، وإنما هو أكبر من ذلك كله ، والجانب الإنسانى فيه ، قد جعل الناس يقولون شاعر العروبة كما يقولون شاعر الإسلام ، وأنا لا أستكثر عليه ذلك كله ، وهو شاعر العروبة وشاعر الإسلام فى آن واحد ولكننى حين أقول شاعر الإسلام لا أعنى أن له شعراً إسلاميا ارتفع به إلى تلك المنزلة ، وإنما أعنى أن نزعته نحو المسلمين ، وعطفه عليهم ، هو الذى بوأه هذه المكانة ، ومن أبرز قصائده فى نكبات المسلمين قصيدته فى إلغاء الخلافة التى يقول فى أولها .

عادت أغانى العرس رجع نواح ... ودفنت عنه تبلج الإصباح
الهند والهة ومصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح
أدوا إلى الغازى النصيحة ينتصح ... إن الجواهر يثوب بعد جماح
إنى أنا المصباح لست بساكت ... حتى أكون فراشة المصباح
وامدح على الحق الرجال ولمهجو ... أوخلى عنك مواقف النصاح

ويتهمه بعض الكتاب فى أن غرضها سياسى لأن العرق التركى فيه هو الذى دفعه لهذا عصبية لقوم له فيهم عرق ، وإن كان يدلع ذلك كله قوله فيما بعد :

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم ... موشية بمذاهب الفتاح
ونضوا عن الأعناق خير قلادة ... ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
حسب أتى طول الليالى دونه ... قد طاح بين عشية وصباح

وعلاقة فصمت عرى أسـبابها كانت أبر عـلائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم فى كل غدوة جمعـة ورواح
بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القطـاء وقاح
من قائل فمسلمين مقـالة لم يوحها غـير النصيحة واح
عهد الخـلافة فى أول ذائد عن حوضها بهراوه نضـاح

وقوله ـ كذلك ـ فى مكان آخر ..

قل للخـلافة قول باك شمسها بالأمس لما آذنت بدلوك
يا جذوة التوحيد هل لك مطفىء والله جل جـلاله مذكيك
خلت القرون وأنت حرب ممالك لم يغف ضـدك أو ينم شانيك
يرميك بالأمم الزمان وتارة بالفرد واستبداده يرميـك
هودى إلى ما كنت فى فجر الهدى عمـر يسوسك والعتيق بليك
إن الذين توارثوك على الهوى بعـد ابن هنـد طالما كذبوك
لم يلبسوا برد النبي وإنمـا لبسوا طقوس الروم إذ لبسوك

وعلى كل حال فإن الباحث فى شعر شوقى عن هذا الجانب سوف يشك كل الشك فى أن يكون لشوقى تلك الروح النقيـة التى تخلع على شعره هـذا الثوب . وهو رجل ـ كما قدمنا لم تـكن فيه صوفية المتعرضين لهذا اللون من الشعر ـ وبخاصة إذا علمنا أنه كان على مذهب قاسم أمين فى عدم مشروعية الحجاب للمرأة ، ويظهر هذا من قصيدته :

صداح يا ملك الـكنا ريا أمـير البلبل
قد فزت منك بمعبد ورزقت قرب الموصلى
وأتيح لى داود مزما راً وحـسن ترتل ..

وفى قصيدته « كوك صو » فى الأستانه بتركيا التى يقول فيها :

فقل الجانحين إلى حجاب ... أتحجب عن صنيع الله نفس
إذا لم يعتر الأهب الغوانى ... فلا يغنى الحرير ولا الدمقس
تأمل هل ترى إلا جلالا ... تحس النفس منه ما تحس
كأن الخود مريم فى سفور ... ورائيها حوارى وقس
تهيبها الرجال فلا ضمير ... يهم بها ولا عين تحس
حملن اللؤلؤ المنثور عيناً ... كما حملت حباب الراح كأس
كأن سوافر الغادات فيها ... ملائك همها نظر وهمس
كأن براقع الغادات تهفو ... على وجناتها غيم وشمس
كأن مآزر العين انتسابا ... زهور لا اثم ولا تحس

وكذلك كان صاحبه - حافظ إبراهيم - يرى هذا الرأى ويقول وقد رحب بكتاب تحرير المرأة الذى نادى فيه قاسم أمين بسفور المرأة ورحب باختلاطها بالرجال .

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ... ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبه
فلو خطوت فى مصر حواء أمنا ... يلوح محياها لنا ونراقبه
وفى يدها العذراء يسفر وجهها ... تصافح منا من ترى وتخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد ... وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل ... لقلنا نعم حق ولكن نجانبه

ولنا بعد ذلك وقفة مع أمير الشعراء فى كتابه « دول العرب وعظماء الإسلام » وهو جزء من ديوانه المسمى « بالشوقيات » وهو كعنوانه حديث عن العرب وعن عظماء الإسلام . وهو فى هذه وهذه ، قد يروق القارىء

إلى حد ما ـ أو إلى حد بعيد ـ فيتخذ منه مادة خصبة ، أو دليلا واضحاً ، على أنه من رجال هذه المعمعة ، وهو فى هذا الديوان لم يلتزم فى القصيدة الروى الواحد ، وإنما أرسلها إرسالا ، فجعل لكل بيت رويه الذى يوحد بين العروضة والضرب ، ليكون أسهل عليه فى المضى ، فيقول فى لغة العرب :

رب لسان جمـــع الأقواما ... فكان ـ كالجنس ـ لهم قواما
واستمسكت واعتصمت به الفطن ... كعروة الملة أو حبل الوطن
ورب شعب نال مجداً باللغه ... لم يبلغ الأقـــوام فيه مبلغه
كانت لـــه فى ظلها حضاره ... رفت نعيما وجرت نضاره
ولم يزل تاجهـــم الكلام ... والأمراء الصاغة الأعلام
محـــلين باللسان الأبين ... بمثـــله يونان لم تزين
حتى حباه الله بالجزيل ... واختاره الوحى والتنزيـــل
فلا تسل عن نهضة العقول ... وكثرة المنقول والمنقول
هـــذا لسان القوم يا بنيا ... على أساس ثابت مبنيا
أودية تنضى الخيال فسحه ... جرت عليها الجمال فسحة
تنزلها أوانس المعانى ... بين معين اللفظ والمعان
لسانك الأول فى الكتاب ... ولغة الصبوة والعتاب
فخض عباب فقهه وسره ... وغص على صحيحه وحره
لا ترض منه مبلغ الرعاع ... وحصة الأعمى من الشعاع
لا تخلط الأعجام بالأعراب ... تحجل ـ وقال الله ـ كالغراب
وكل مالم يرم عن قوس العرب ... فليس فى نبع لهم ولا غرب

ويقول فى البيت الحرام :

دار عليها ميسم من القدم ... حجت على أول خف وقدم

مهد الهدى فى الأولين ركنها وحصنه فى الآخرين حصنها
تلك جباه الرسل فى ترابها وخد إبراهيم فى محرابها
لم تبن بالصفاح والصوان ولا علت تعالى الإيوان
لا يد خوفو أرهقت فيها البشر ولا سليمان لها الجن حشر
بل صنع شيخ مقبل مزاول أعين بابن يافع مناول
قد رفعاها حجراً فوق حجر ووضعا فيها على اليمين الحجر
حتى تجلت قبة الإيمان ممدودة الظل على الزمان
وما بنى الحق له الثبوت وما بنى الباطل عنكبوت

ويقول فى السيرة النبوية - وهى أطول هذه القصائد نفسا - وأكثر مواقفها رائعة وشيقة :

فشب حلوا سمنه ودله ليس له من اليتيم ذله
مرتسما فى أدب الإسلام من اجتناب الخمر والآثام
منحرفاً عن الدمى صبيا وهكذا من يجتبى نبيا

ويقول فى الخلفاء الراشدين :

نما هو كما نماه فهر فبينهم وشيجة وصهر
معادن الوفاء والإخاء صحابة الشدة والرخاء
ما منعوا الله ولا نبيه قياه نفس صحة أبية
وما الحواريون خلف عيسى أحث منهم للنجاة عيسا

ويقول فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه :

لما أهاب بالرسول الداعى وآذن الجثمان بالتداعى

ولى أبا بكر على الصلاة وتلك عليا رتب الولاة
فبايع الطائع والأبى طوبى لمن بايعه النبى
وكان ما لم يك منه بد أقضية الرحمان لا نرده

ويقول فى عمر رضى الله عنه وأرضاه :

فليس يدرى المسلمون سيدا أبرك وجهاً منه أو أندى يدا
من يلقه فى طهره يلاقى ركن الحقوق حائط الأخلاق
ولاته فى ملكهم رهبان والفلك حيث ساقها الربان
خليفة يمس فى الإعتام ويطبخ الطعام للأيتام
طريقه فى العدل قط ما سلك من ذا قضى لسوقة على ملك

ويقول فى معاوية بن أبى سفيان :

فى الدهر لم تصنع قيون الهند ولم يسل الشرق كابن هند
العبقرى الملك الخليفه السعد كان أبداً حليفه
مازال بالجبال والعصى من سحره فقاز بالوصى
رب أعف عن جرأته عليكا فالعفو منك والرضا إليكا
لم يعل فى العفو عليه كفو فأره كيف يكون العفو

ويقول فى خالد بن الوليد :

من طبع السيف ومن جلاه هل يصنع الآيات إلا الله
إنس الحديد بشعر المفرند ليس بصنع يمن أو هند
وكيف لا يصحبه المضاء وقينه المقدار والقضاء
كابن الوليد موئل الأعلام سيف الإله أسد الإسلام

طلق جاهليـة المعاصى ودخل الإسلام وابن العاص
كلا العظيمين فتى قريش صدر ندى ولواء جيش

وهكذا فى كل حديث تناول به الأشخاص أو الدول أو المواقف لم يعد أن يكون مؤرخا بصدر مع سرده للتاريخ حكمه لم يزد على ذلك أو ينقص ، وهو حكم ينفرد به وحده ، قد يتلاقى مع أحكام الناس ، وقد ينفرد ، ثم تبقى له الميزة على كل حال فى أنه كان فى ذلك التاريخ شاعراً ، له من الموسيقى الحلوة ، وجمال الألفاظ ، وطنين الكلمات ، ما يحمل الآذان على الإصغاء ، والقلوب على الميل ، والأفئدة على القبول ، والنفوس على الإذعان ، وهذه هى وظيفة الشعر فى كل زمان ومكان ، يغرى بالاستجابة ، ويدعو إلى الإعجاب ، وما كان شوقى فى كل ذلك إلا هكذا .. ويظلمه الظالم كله - أو بعضه - من يجرده من مثل قوله :

ســـاقى الطلا شربهـا وجب
هاتهـــا مشت فوقهـا الحقب
يابليـــــــة تنفث الحبب
إن كرمهـــا آدم العنب
هـــذبت فنى دنها الأدب
اســـقها فتى خير من شرب

أو قوله أيضاً ..

حف كأسها الحبب فهى فضـة ذهب
أو فم الحبيب جلا عن جمانه الشنب
يا نديم خف بها لا كبابك الطرب
لا تقـــل عواقبها فالعـواقب الأدب

تنجلي ولي خلق ينجلي وينسكب
يرقب الرفاق له كلما سرى شربوا

ليكون شاعرا إسلاميا ، أو ليصدر عنه الشعر الإسلامي ، اللهم إلا أن يكون ذلك من قبيل الآية القرآنية « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون » والتاريخ حين يحكم على الرجال لا يجعل الشاهد على الحكم الأقوال دون الأفعال ، ولا سيما إذا كانت هذه الأقوال متناقضة متضاربة ، ومن أجل هذا كله لانرى إلا أن هذه قضية فيها نظر كما يقولون ، وحبذا لو أولاها الدارسون للأدب حقها من النظر ليعلم الناس من جديد أن الشعر الإسلامي شيء آخر ، وأن هؤلاء الذين دفعهم الحماس أن يقولوا هذا القول كأنما كان يعنيهم هو بقوله في كتابه « أسواق الذهب » : « إذا بالغ الناس استعاروا للهر ذيل الأسد » ؟

د . إبراهيم علي أبو الخشب